

# مجدد

قصته بقامه زكريا تامر

ودنا منه حفار القبور ، وصافحه معزيا ضاغطا على يديه بحرارة ،  
ثم تنهد وقال ليوسف :  
- الموت صعب .

ولم يتسم يوسف لان حفار القبور ظنه واحدا من اقارب الميتة .  
وابتمد حفار القبور عن يوسف الذي كان يرقبه بدهشة ، وفجأة التفت  
حفار القبور ورهق يوسف بنظرة يسحقها انكسار عجيب ، وعندئذ احس  
يوسف انه مرتبط بشكل حقيقي وغامض بالميتة .

وغادر يوسف المقبرة . وسار متباطئا في شارع تنتصب الاشجار  
على جانبيه ، وكانت الشمس فوقه حارة ومضينة . وانحدر نحو قلب  
المدينة حيث كان الصخب بانتظاره ، وهناك مشى دون هدف ، مقوس  
الظهر ، رتيب الخطى ، وابندا يمارس هوايته بان يختار أسماء لناس لا  
يعرفهم : هذا : كركدن . هذه : خنفساء . وذلك : طبل .

ووقف حيناً من الوقت متكئا بمرقبه على سور النهر ، وراقب  
المياه التي تترقق منسابة بخفة تحت ضياء الشمس الساطعة ، وأطبق  
عينيه ، وانصت للخبر الخافت ثم عاود السير بتكاسل اذ لم يكن لديه  
ما يفعله ، وكان يشعر في تلك اللحظات ان لا شيء حقيقيا على وجه  
الارض ، وكان لا يريد ان يحيا ولا يريد ايضا ان يموت ، ولا يبغى فعل  
أي شيء سوى ان يستلقي على ظهره تحت شمس دافئة مثائبا بين حين  
وآخر حتى يهرم ويموت .

ودب التعب في قدميه وظهره ، فقصده مسكنه الذي كان قبوا فيه  
غرفة واحدة ومطبخ . وكان القبو فيما مضى مخزنا للاحطاب تابعا للطابق  
الاول حيث يقطن صاحب البناية . ودس يوسف المفتاح النحاسي في  
ثقب القفل ، واداره ، وفتح الباب ، ودلف الى الداخل ، واوصد الباب  
خلفه ، وحينئذ استولى عليه شعور بأنه ناء عن العالم ، وغرب عن النهاد  
الصاحب الابيض الذي يعدو عبر الشوارع ، وهبط درجات السلم  
الحجرية اوصله الى الغرفة . وكان للغرفة ثلاث نوافذ مطلة على  
الحديقة . وكان ثمة طاولة خشبية في وسط الغرفة ، فبع على سطحها  
تمثال صغير من خشب اصفر غتيق لبدوي يمتطي صهوة جواد شرس .  
وقد رفق بنظرة مكتئبة بينما الرغبة في سماع الموسيقى تتسرع في دمه  
عذبة ضارية لها مائة فتاع .

وتمدد يوسف على سريره الحديدي الضيق ، وحملت عيناه في  
السقف ذي البياض الباهت ، وكان شبيها بالبلاطة التي سدت فم  
القبر . الميتة اسمها ليلى ، صبية في مقتبل العمر ، هي الان وحيدة في  
حفرة مظلمة بينما السماء زرقاء والشمس متوهجة والاشجار خضراء .  
وانكفا يوسف دافنا وجهه في الوسادة وهو فريسة لخيبة مريرة لا سبب  
لها . آخ اخ . سيموت يوسف . الرغبة في الموت والخوف من الموت  
صوتان ينموان في لحمه وبصعدان عاليا . سينبج شرايين معصمه ،  
وسيبكي وهو يلصق وجهه بالبلاط البارد الصلد مخاطبا مخلوقا ما لا  
يعرف وجهه : وداعا .

وخيل الى يوسف خلال لحظات ان قبوه ليس الا قبرا . وسمع  
بفتة حركة في الحديقة فسطع نهار طفل في داخله ، واسرع الى  
النهوض ، ودنا من النافذة فاذا سميحة بنت صاحب البناية تقطف زهر  
الباسمين من الشجيرة المزروعة في حوض ترابي قريب من النافذة .  
وتأمل يوسف سميحة بعينين نهمتين ، وقد كان شعرها اسود متهدلا  
على كتفها ، وعيناها مغممتين بالمدوبة والتحدي . ووقفت سميحة على

تبع يوسف الجنازة اذ لم يكن لديه ما يفعله فهو يملك يوما واحدا  
في كل اسبوع بينما كانت ايامه الاخرى تتعاقب متمبة خاضعة لصخب  
المعمل وصراخه الاجش المديد .

ورمى يوسف عقب سيجارته ، واندمج في حشد من الرجال  
السائرين خلف تابوت خشبي محمول على الاكتاف . ومشى يتمهل عاقدا  
يديه بوقار على صدره ، منكسا رأسه قليلا بينما يتناهى الى مسمعه  
صوت المؤذن يتعالى عذبا ومثقلا بالوحشة . وكان المؤذن رجلا بدينا ،  
قصر القامة ، ذا لحية سوداء ، يسير في المقدمة امام التابوت بين صفين  
من الرجال الحاملين اقصان الاس الاخضر .

وكان ثمة عدد من النسوة ، متلفعات بملءات سوداء ، يمشين  
مبعثرات على مبعدة بسيرة . ولم تكن المقبرة نائية ، وقد وقف يوسف  
بين الاضرحة البيضاء ، منفرج القدمين ، تحت شمس صفراء وسماء  
زرقاء ، تفعم أنفه رائحة التراب والعرق والاس بينما كانت السماء تمتد  
فوقه رحبة دون غريان .

وضع التابوت على الارض . تنهد بارتياح الرجال الذين كانوا  
يحملون التابوت . اقترب حفار القبور من التابوت . حفار القبور رجل  
مفبر الثياب والوجه . انحنى . هم برفع غطاء التابوت . وعندئذ انطلقت  
صرخة حادة من حلق امرأة : انا امك يا ليلى .

فتخيل يوسف على الفور الفتاة الميتة ترفع غطاء التابوت وتقول :  
مرحبا ماما . وأخرج جسد الميتة من التابوت ، وحمل برفق ، وكان  
ملفوقا بقماش لامع بنفسجي اللون . فتماثلت صيحات النسوة ، تندب  
فتاة ماتت وهي ما تزال في مقتبل العمر ، وتوارت قبل ان تعرف سمات  
الديسا .

وكانت الحفرة مهيأة من قبل ، يرتفع على جوانبها التراب والحجارة  
الصفيرة ، فانزل الجسد الميت الى جوفها ، وغاب في العتمة .

وكان ثمة شاب وسيم الوجه ، لامع الشعر ، يرتدي بنظالا رمادي  
اللون ، وقميصا ابيض . وابتسم يوسف اذ لاحظ ان باقة القميص غير  
نظيفة . وكان الشاب مقفيا عند حافة القبر ، يتطلع الى داخله وقد  
انتحب بفتة بصوت عال ، مغطيا وجهه براحتيه ، وسمع يوسف بعض  
الرجال الواقفين حوله يتهايمسون : هذا خطيها .

وأغمض يوسف عينيه نصف اغماضة . لن ترتدي الميتة ثيابا  
بيضاء . لن تزغرد النساء . لن يعانقها شاب وسيم الوجه ويقول لها :  
يا حبيبتي .

وبدرت من الشاب على حين غرة حركة وكأنه يوشك ان يقذف  
بجسده الى جوف القبر فسارع الرجال وأمسكوا به ، واقتادوه بعيدا  
وهم يواسونه متمتمين بكلمات الغراء .

وسد فم القبر ببلاطة باهتة البياض ، ثم أهيل فوقها التراب بينما  
كان نواح النسوة يشتد ويقوى ممتزجا بشكل ما بحركات الرجال الذين  
يتمسحون أعينهم بمناديل بيضاء .

وامتلكت المقبرة موجة من الضجيج الحزين . ولبت يوسف متجمدا  
في مكانه ، وكان موقنا ان الموت أبصره ، وحملق به بشراهة .

واقفرت المقبرة شيئا فشيئا ، وانحدرت الاصوات المعولة ، وظل  
يوسف واقفا وحده يتأمل ببلاهة كومة التراب المرتفعة قليلا عن  
الارض .

رؤوس اصابع قدميها محاولة قطف بعض الياسمين من غصن عال، فأبصر يوسف لحم فخذها الأبيض بينما هو واقف في أسفل .  
واحضر الكرسي ، ووقف عليه ، وقرب وجهه من النافذة ذات القضبان الحديدية التي كانت مغطاة بنسيج حديدي يحمي الغرفة من الدباب . وقال بصوت خافت : سميحة .

فتابعت سميحة قطفها للياسمين بينما وجهها كفتاح جامد جميل .  
وعاود يوسف القول بالحاح وتوسل : سميحة سميحة .

فلم تجب ، وأيقن أنها تتجاهله عن قصد ، فداهمه شعور بالمهانة والذل . وكانت سميحة خارج القبو ، واقفة على سطح الأرض بشبات وثقة ، مغمورة بالشمس ، تتألق فتية ، وكان عمرها لا يتجاوز السادسة عشرة . وغاص يوسف في طين خفي قديم . وأشعل سيجارة ، وطفق يلترع الغرفة بخطى سريعة قصيرة . وكان الحق في شرايينه يلقي بانشودة خشنة ، وكانت ليلي الفتاة الميتة بلا شمس ، مستلقية على ظهرها ، ملفوفة بالقماش اللامع البنفسجي اللون .

وولفت سميحة ثانية على رؤوس اصابع قدميها واستنطاق يوسف رؤية فخذها من جديد . سيكون القماش باردا . واجتاح يوسف شوق عارم لرؤية وجه الميتة ، صرخت امها : ليلي . لا لا . لن يرى وجهها حتى يقبل الليل . الليل صديقه . الليل كفن أسود . وبدت على وجه سميحة كبرياء طافية . واشتد غضب يوسف . ستنبش اظفاره التراب ، وتبعده عن البلاطة بحركة محمومة ، وسيرفع البلاطة، ويتزلق الى أسفل وسيكون القمر فوق القبر ، وسيسترب نوره أبيض همجيا الى داخل القبر . ستمتد يدان مدعورتان وحشيتان ، وتبعدان القماش فيزغ عري الجسد الهامد . اللحم بارد وحار في آن واحد ، مكنتز وناعم ولين . لن يجسر على النطق الى وجهها . سيخونه القمر ويهرب ليتزكح وحيدا . وستبعد الميتة القماش المتكوم فوق وجهها ، وتطلق صرخة فرح حادة .  
وعض يوسف بأسنانه على شفته السفلى بينما الرعب يدب جامحا في أوصاله . وانحنت سميحة مقربة وجهها عن النافذة . وقالت وهي تبسم : ماذا تريد ؟

- أين الرد على رسالتي ؟

- رميته من شباك المطبخ ، ألم تره ؟

وابتمدت عن النافذة ، وسمعتها تصعد السلم الحجري القليل الدرجات ، وتدخل الى الطابق الاول .

وهرع يوسف الى المطبخ حيث توجد نافذة واحدة مطلة على حديقة البناية الخلفية ، وكان ثمة ثقب في النسيج الحديدي الذي يغطي النافذة ، أحدثه يوسف بنصل السكن . وقد اعتادت سميحة ان ترمي رسائلها منه .

وعثر يوسف على ورقة مطوية ، فالتقطها ، وعاد الى الغرفة ، وجلس على الكرسي بعد ان قربه من الطاولة الخشبية ، وفتح الورقة ، وابتدأ يقرأ بجور عظيم :

حبيبي يوسف ...

وكانت سميحة تسأله بسداجة : متى سيتزوجها ؟ وسمع طرقا فوقه على سقف الغرفة ، فابتسم وهو مدرك ان سميحة كعادتها تفرع بقدمها أرض غرفة الصيوف ، فرجع الى المطبخ متيقنا من أنها ستخضر لتكلمه . ولقد أتت بسرعة ، وجثت على ركبتها ، والصفت وجهها بالنافذة، وكان المطبخ مظلم لا تستطيع رؤية ما بداخله . قالت: يوسف . فلم يفه يوسف بكلمة ، فنادت ثانية بصوت خفيض : يوسف يوسف . فسعل يوسف بمرح ، وقالت متسائلة بشيء من اللهفة والخجل :

- قرات الرسالة ؟

- قرأتها .

- قرأتها ؟ ؟ أين الجواب ؟

- لم أكتبه .

- لماذا .

- سأترجك الآن .

ضحكت .

- هل افتح لك الباب ؟

- لماذا ؟

- ألا يعيش الزوج والزوجة في بيت واحد ؟

- ماذا ستفعل إذا كنت معك ؟

- سأقبلك .

- كم مرة ؟

- كم تريدني ؟

فارتفعت ضحكتها كصرخة فرح صادرة عن عصفور صغير . وقال يوسف بلهجة جدية مبالغتة :

- أهلك أغنياء .

- هل هذا عيب ؟

- لن يزوجوك الا من غني .

- لن أقبل الا ما أريد .

- ماذا تريدني ؟

- سأترجك من احب .

- من تحبين ؟

- أنت تعرف .

- قلني .. من تحبين ؟

- أنت .

- انا فقير .

- احب الفقر .

- الفقير شبع .. ستجوعين .

- احب الجوع .

- أخلاقي سيئة .. قد اضربك .

- اضربي .

- هل تهربين مني ؟

- الى أين ؟

وتعالى في تلك اللحظة صوت أم سميحة ناديا : سميحة سميحة ..  
أين أنت ؟

فهبت سميحة واقفة ، وأسرعت نحو شجرة الليمون النامية حديثا، وتصنعت انها تداعب اوراقها الخضراء الصغيرة . وسمع يوسف الام تقول :

- ماذا تفعلين ؟

- سأسقي الحوض .

- أتزكي الان سقاية الحوض . ذهبي وترتي غرفة الصيوف . هناك رجال سيزورون أباك هذا المساء .

ورجع يوسف الى غرفته ، وأشعل سيجارة ، وابتلع القليل من دخانها ، فانتابه دوار خفيف ، وعندئذ تنبه الى انه جائع ، فقصد المطبخ وأكل رغيفا وقطعة من الجبن ، وشرب كوبين من الماء ثم اشعل مجددا سيجارة اخرى ، ووضعها بين شفثيه ، ضاغطا عليها بخنو ، وعب منها انفاسا متلاحقة ، ثم نفت الدخان ببطء ، وانتشر الخدر والشموق اليه في أوصاله ، وكان في تلك اللحظة منتشيا كان نجوما تتألق في شرايينه تحت جلده .

واستلقى يوسف على السرير وهو مستسلم لفرح لا سبب له ولكنه مالت ان تبعد فرحه. حين تذكر انه سيهرع في صباح الفد الى العمل حيث الآلات . وهدرت في مسمعه اصوات الآلات . آلات حديدية ، ناعمة الملمس كلحم امرأة . وكانت الميتة وحيدة في حفرتها ، هامدة . لسن تاكل خبزا او جبنا . لن تعود الى بيت ما . لن يزجرها أب أو أم . لن تحلم . لن تسكر وتترنج . لن يولد الحزن في عينيها . لن تقول : آخ . ولن يرتمش فوق قمها حين الى شيء ما ليس له اسم ومفقود عبر الارض الكبيرة . سافاجيء ببرودة اللحم حين المسه . وستكون ظلمة القبر كحجر اسود صلد . لن يجسر على رؤية وجهها . وجه صاحب العمل مرح وقاس وخبيث . لا يعبه يوسف لا يعبه . وجه مصنوع من حديد وغبار وزيت . اعطنا خبزا ولحم نساء ايها الرب الفولاذي . صاحب

المعمل غني . ولم يكن في البداية غنيا انما كان يملك دكانا صغيرة ويرتدي ثيابا زرقاء يلطخها الزيت والشحم . وكان عماله قلائل ، يشاركونهم في العمل والاكل والحديث والضحك ، ويؤمن ان الناس طبيون . وشيئا فشيئا تحولت الدكان ذات الالة الواحدة الى معمسل مكتظ بالالات . فاضمحلت ضحكة صاحب العمل ، وابتدا يؤمن ان الناس اردباءومحبون للكسل ، وتبدلت ثيابه ، ولم يعد يمشي على قدميه . والد سميحة غني ايضا ولكنه لا يملك سيارة . انما يملك اراضي ، ارتفع ثمنها فجأة فاغتنى ، وانتقل من بيت في زقاق الى بناية في شارع عريض غير انه مازال رجلا ولد في بيوت الازقة ، ضخم الجثة ، كتيب الوجه ، صوته خشن وفظ . انه يحب سميحة لكنه سيديحها لو علم ان لها علاقة ما برجل غريب . سميحة تخاف منه . لا تحب امها . امها تعاملها وكأنها خادم . سميحة الان بنت اغنياء . ولن يزوجها والدها الا من غني . وحين تكبر ستتبدل وتطلب رجلا ذا ثروة .

وافترس يوسف حقد صار لعلمه ان كل سنة تمر ستبعده عن سميحة ولكنه ارتعش شوقا اليها ، واختلط الحقد والشوق معا . وتخيّل سميحة نجمة بيضاء متألّمة في الاعالي . ورن جرس الباب بفتنة ، فنهض يوسف مرتبكا ، وصعد درج القبو ، وفتح الباب بسرعة ، فلم يجد احدا . فاغلق الباب ووقف خلفه في العتمة ويده على المقيض . وسمع بعد قليل وقع اقدام حافية ، ففتح الباب فاذا بسميحة تتراجع وقد فوجئت فنادها يوسف :

– سميحة .

فتطلعت اليه متسائلة فاشار اليها ان تقترب ، فهزت رأسها متمنعة سألها بصوت خفيض : أين أمك ؟

– نائمة .

وكانت شمس الظهيرة متألّقة ، بالفة اوج قوتها . وطلب يوسف من سميحة ان تقترب منه فسألته بمكر : ماذا تريد ؟

– اريد ان اقول لك كلمة .

– قلها .

– افترسي .

– لا .

– الا تحبينني ؟

– لا احبك .

فاشار يوسف بسبابته الى فمه ثم ابعدا وقال : واحدة . فحركت كتفها باشارة رفق فقال : سأزعل . وكان تواقا لان يضمها بين ذراعيه وان يشعر ان ثمة مخلوقا حيا لصقه ينفس ويلهث ، قالت سميحة بتشف ممتزج بفرح اطفال : ازعل وافعل ماتشاء .

فاصطنع وجهه سيماء التجهم ، ورنا اليها بنظرات حزينة بينهما كان شديد الحنين لان يحس برحلة الدم في الشرايين خلف بشرتها وقال :

– واحدة فقط .

– اوأحدة فقط ؟

– واحدة فقط .

– اذن انت لا تحبني .

– سأكلك .

فتراجعت الى الخلف وهي تقول : كشفت نواياك السيئة . واخنت وراء باب غرفة الضيوف ، ورجع يوسف الى داخل قبه ، وتعهد من جديد على وجه السرير . ومن مكان قريب انسابت اليه اغنية المدياع .

صوت المرأة التي تغني حار وعذب . وتخيّل يوسف نهرا يجوس المدينة تحت الارض عبر الظلمة والسكينة .

صوت المرأة يبوح برناء اسود .

النهر صامت ، والماء يتسكع صامتا تحرسه الاشباح بينما الفناء يضمحل ويتبدد .

وبلغ مسمع يوسف طرق خفيف على شباك المطبخ ، فذهب الى المطبخ وهو حائق ومفتبط في وقت واحد . ووقف امام النافذة الصغيرة . قالت سميحة : يوسف .

وازردت بلهجة ودیعة : هل زعلت ؟

فاجاب بغيظ : انا لست من حديد .

– كنت خائفة من امي .

– امك نائمة .

– كنت خائفة .

– ممن ؟

– لااعرف .

وصمت يوسف وتخيّل امها : امرأة طويلة الغامة ، جميلة ، تتكلم بصوت عال وقاس ، قال :

– أمك مزعجة .

فقالت متسائلة : وأمك ؟

– ستحبينها .

– لماذا تركت بيت اهلك ؟

– قلت لك من قبل .

– نسيت . هيا ... اخبرني .

– كان ابي يريد مني ان اعطيه اجرتي كلها . ويحاول منعي من قراءة الكتب التي احبها زاعما ان الكتب تفسد العقل وتضر البصر وتضيع الوقت وتبدد المال .

– صف لي اباك .

– انه طويل ، ويفضب بسرعة .

– وأمك ؟

– جميلة .

– هل هي تحب اباك ؟

– لم تحب في البداية .

ولاذ بالصمت فحثته سميحة على متابعة الكلام قائلة :

– ثم ماذا ؟

– اعتادت عليه وكفت عن التذمر .

وصمنا ، واخذ يوسف يرقبها مأخوذا ، وكأنه يراها لأول مرة وكانت جميلة ، لها نهدان ناضجان ، وفم احمر .

– هل تهربين معي ؟

فابتسمت وقالت : الى أين ؟

– قولني نعم او لا .

– سأهرب .

واستمر يرمقها مسحورا بفتنتها ، وارتجف العالم كله امام عينيه المثبتتين على شفثها السفلى الرقيقة . وقال :

– اذهبني نحو الباب واعطني قبلة واحدة .

– لا لا .

– سأزعل .

فتنهضت ، وابتعدت عن النافذة ، وغادر يوسف المطبخ ، وصعد الدرج مسرعا ، وفتح الباب قليلا ، ووقف منتظرا ، وسمع باب غرفة الضيوف يفتح بكثير من الحذر . وبدت سميحة خجلة متهيبة ، ففتح الباب دون ان يحاول الخروج ومد يده نحوها ، وقال بصوت شديد الخفوت : تعالي .

فظلت واقفة على مبعدة تبسّم دون حركة .

ومد يديه الاثنتين ، وكان جسده آتئذ صوتا يتوسل بضراعة ، فهدنت بتردد ، وامسك يوسف بيدها ، وجرها الى الداخل بشكل مباغت ، واغلق الباب خلفه ، واحتوتها عملة الدرج ، واحاط يوسف وجهها براحتيه ، وبحث فمه عن شفثتها ، وما ان انزلت شفثتها بين شفثتيه حتى تدفقت نار مجهولة في دمه وامتزجت بلحمه ، وانثى بليونسة الجسد الذي يحتضنه بين ساعديه . واحس بسميحة لصقة صغيرة مبتهجة لاهثة .

المعمل غني . ولم يكن في البداية غنيا انما كان يملك دكانا صغيرة ويرتدي ثيابا زرقاء يلطخها الزيت والشحم . وكان عماله قلائل ، يشاركونهم في العمل والاكل والحديث والضحك ، ويؤمن ان الناس طبيون . وشيئا فشيئا تحولت الدكان ذات الالة الواحدة الى معمسل مكتظ بالالات . فاضمحلت ضحكة صاحب العمل ، وابتدا يؤمن ان الناس اردباءومحبون للكسل ، وتبدلت ثيابه ، ولم يعد يمشي على قدميه . والد سميحة غني ايضا ولكنه لا يملك سيارة . انما يملك اراضي ، ارتفع ثمنها فجأة فاغتنى ، وانتقل من بيت في زقاق الى بناية في شارع عريض غير انه مازال رجلا ولد في بيوت الازقة ، ضخم الجثة ، كتيب الوجه ، صوته خشن وفظ . انه يحب سميحة لكنه سيديحها لو علم ان لها علاقة ما برجل غريب . سميحة تخاف منه . لا تحب امها . امها تعاملها وكأنها خادم . سميحة الان بنت اغنياء . ولن يزوجها والدها الا من غني . وحين تكبر ستتبدل وتطلب رجلا ذا ثروة .

وافترس يوسف حقد صار لعلمه ان كل سنة تمر ستبعده عن سميحة ولكنه ارتعش شوقا اليها ، واختلط الحقد والشوق معا . وتخيّل سميحة نجمة بيضاء متألّمة في الاعالي . ورن جرس الباب بفتنة ، فنهض يوسف مرتبكا ، وصعد درج القبو ، وفتح الباب بسرعة ، فلم يجد احدا . فاغلق الباب ووقف خلفه في العتمة ويده على المقيض . وسمع بعد قليل وقع اقدام حافية ، ففتح الباب فاذا بسميحة تتراجع وقد فوجئت فنادها يوسف :

– سميحة .

فتطلعت اليه متسائلة فاشار اليها ان تقترب ، فهزت رأسها متمنعة سألها بصوت خفيض : أين أمك ؟

– نائمة .

وكانت شمس الظهيرة متألّقة ، بالفة اوج قوتها . وطلب يوسف من سميحة ان تقترب منه فسألته بمكر : ماذا تريد ؟

– اريد ان اقول لك كلمة .

– قلها .

– افترسي .

– لا .

– الا تحبينني ؟

– لا احبك .

فاشار يوسف بسبابته الى فمه ثم ابعدا وقال : واحدة . فحركت كتفها باشارة رفق فقال : سأزعل . وكان تواقا لان يضمها بين ذراعيه وان يشعر ان ثمة مخلوقا حيا لصقه ينفس ويلهث ، قالت سميحة بتشف ممتزج بفرح اطفال : ازعل وافعل ماتشاء .

فاصطنع وجهه سيماء التجهم ، ورنا اليها بنظرات حزينة بينهما كان شديد الحنين لان يحس برحلة الدم في الشرايين خلف بشرتها وقال :

– واحدة فقط .

– اوأحدة فقط ؟

– واحدة فقط .

– اذن انت لا تحبني .

– سأكلك .

فتراجعت الى الخلف وهي تقول : كشفت نواياك السيئة . واخنت وراء باب غرفة الضيوف ، ورجع يوسف الى داخل قبه ، وتعهد من جديد على وجه السرير . ومن مكان قريب انسابت اليه اغنية المدياع .

صوت المرأة التي تغني حار وعذب . وتخيّل يوسف نهرا يجوس المدينة تحت الارض عبر الظلمة والسكينة .

صوت المرأة يبوح برناء اسود .

النهر صامت ، والماء يتسكع صامتا تحرسه الاشباح بينما الفناء يضمحل ويتبدد .

وتناهى الى مسمهما وقع اقدام فتجمدا ، وتخلت ذراعاه عن  
خصرها انما ظلا متلاصقين وصعد القادم الجهول الى اعلى حيث الطابقان  
الثاني والثالث . وعندئذ فتحت سميحة الباب وانفلتت عائدة الى البيت .  
وأوصد يوسف الباب دون صوت ، وانحدر الى اسفل . وساد  
سكون عجيب . وانتابت يوسف حيرة ممتزجة بخوف غامض . واشعل  
سجاعة ، ومضى يذرع غرفته متاملا الجدران بعينين مذهولتين . سيشتري  
يوسف سيفاً محدودب النصل ، وسيشتري ايضا جوادا وعباءة ويرتحل  
الى الصحراء .

وارتمى متهاككا على السرير . يغمض يوسف عينيه . يقبل ليل  
مبهم ممتزج بزئير أسود . ارحل نحو اشد الدروب حلقة . يوسف  
حثة . اقبل رجال امهم هي أم يوسف . سيلقونه في البئر ولن ينقذه  
احد . واثت الضباع الى كهف يخيم عليه الموت والليل . سميحة تحب  
الشمس واللون الأبيض . القمر ذئب يعشق فتاة ميتة . يزار الاسد  
ويتراجع الى الوراء متاهبا للثوب . انهض ايها البدوي المشمت الشعر ،  
واطلق صرختك رعدا غاصبا . اواه يا امي لن املك سيفا وعباءة وجوادا .  
رماح اجدادي مدفونة تحت جبال الرمل ، يوسف لم يلوح بسيف  
في وجه شمسي متمسرة فوق ارض المعركة . ولم يمتط صهوة جواد .  
يزار الاسد . الموت يحشو حنجرتي قطنا ويسرق الهواء . يرتعد يوسف  
ويفتح عينيه مستعيدا طمأنينته . ويتذكر سميحة . ستتحدر يوما  
الى قبوه ، وستكون مغممة حنانا وتمعشنة لحب رجل لا وجه له . سيلمق  
نهدبها بلسانه متلوقا طعم العرق المالح الممتزج برائحة جسد الانثى  
الفتي . وسيكون لنهدبها شذى غامض . وستجتاح يوسف الرغبة العارمة  
في الموت لحظة يتلقف فمه حلمة نهديها ، ولن ينساب حليب الى فمه .  
واحتقه ندم نما في نفسه ، وبدت له تخيلاته وحلا يحاول ان يفرق  
سميحة الشبيهة بياسمينه بيضاء . ولكنه شعر في الوقت نفسه ان  
العصافير التي ترفرف باجنحتها في الاعالي لابد انها بانسة وتمعبة ،  
وحياتها مجرد رحلة عبر فراغ صامت وبحث عن سطح صلب .

وعاودته رغبة قديمة في ولوج اشد العوالم ظلاما ، واشتد شوقه  
لان ينزلق هاربا نحو عالم النساء اللواتي يدخلن الغرف ذات الابواب  
التي توصل خلفهن باحكام ، فيتعيرن بسرعة من ثيابهن ، ويستلقين على  
ظهورهن ، وبعضهن لايتعيرن انما يكتفين برفع الثوب عن نصف الجسد ،  
ولا يخجلن وهن يتناولن النقود من يد رجل ما . عالمن حقيقي مكث  
ببشر احياء خاضعين لابقاع النزوة والحماقة والشهوة والحقد والاهة  
المصطنعة والاهة المنسلة من العظم . يوسف سيمشق مومسا ثم يبصر  
الهيئة عارية عريا حقيقيا . ها هي الان ملقاة دون حراك في قاع حفرة .  
لن تبيكي . لن تضحك . لن يقرصها شاب في الطريق . لن تخشى  
الاصطدام بالسيارات . لن تسمع كلمات غاضبة تنهال من فم اب عجوز  
يختبئ في اعماقه سلطان تركي .

وتخيل يوسف والده سلطانا تركيا ، ثمة عمامة كبيرة على راسه ،  
وله لحية سوداء تضفي على وجهه مسحة من الشر الخالد . وحولته  
عيون خاشعة . مولاي . وينحني ابداع ويجلبون له اجمل النساء من  
مختلف اصقاع الارض .

سيقولون له : هذا هو المجرم .  
وسيتكلم السلطان فيقول : ارموه في البحر .  
فيضعون في قدميه انقلا حديدية ، ويلقونه في الماء . ساقوص  
كحجر ثقيل . وعاد يوسف الى بيته العتيق . أمه تعرخ . اخوته الصغار  
يتساجرون . أبوه ينفخ دخان نرجيلته بينما وجهه مشميت بعبوس  
قام . فطمه زوجة اخيه الكبير تضحك وتمطي . تقطر عذوبة وارتماشيا  
يتبشى بالحنين الى النشوة . وفي الاذقة الضيقة يتراشق الاولاد بالحجارة  
وسال الدم من راس يوسف . ويصفعه معلم المدرسة على رقبته حين  
يعثر على قملة في شعره ويبيده الى البيت لكي يقنسل ، يحملق يوسف  
بشراهة في ارغفة بيضاء طازجة . يقبل بنت الجيران . ما اسمها ؟  
اسمها : ليا . ويضحك والده هازنا منه . اقرأ اقرأ . الكتب ستجرك  
الى جهنم . ويحقد يوسف على اخيه الكبير لان فطمه زوجته . يتسلل

الى غرفتها حين يكون ابوه واخوه مسافرين . وعندما يعود الى غرفته يجد  
امه بانتظاره تقف مشدودة القامة وتساله بصرامة : اين كنت ؟ ولماذا  
تسألين ؟ يرتبك يوسف . يخاف ولكنه يتشجع . اخبرني ابي واخي .  
فليطلقها اخي وساتزوجها . أمي حريصة على تماسك الاسرة . طردتني  
من البيت الذي ولدت فيه . أمي لاتحبي . ساغادر البيت واذهب الى  
الجحيم ممطيا دراجة او حصانا خشيا . أمي تحب فقط الاخلاق  
الحميذة . ابي لا يحب سوى الاولاد الذين يشتغلون في الليل والنهار  
ولا ينفقون نقودهم ويقبلون يده باحترام . لن اقبل يدك يا ابي . يوسف  
صوت وحيد . ساترك الحارة للذباب والوسخ . سيعيش كما يريد .  
سأجد عملا ذا اجرة وفيرة ، واستاجر غرفة في شارع عريض مبانيه  
حجرية واناسه انيقون ويعتدرون بلطف اذا اصطدموا بشخص ما . تفو .  
ليس لك يا يوسف الا قبو ومعمل . سيحرق يوسف منازل الاغنياء ،  
وياكل عيون اطفالهم ، ويمزق لحم نساءهم . الاغنياء وحدهم يعيشون . .  
هذه حقيقة صلبة كحائط .

وغرق يوسف في افقارة . وعندئذ التصق بحائط ترابي . وحاول  
ان يحمي جسده بيديه . وكانت المدينة في يد رجل لم يتمكن يوسف  
من رؤية وجهه ، المدينة كامراة من شهوة . تظهن اللحم فتتابع شهقات  
يوسف اثر كل طعنة . ويئن يوسف ويتقلب على وجه سريره الضيق .  
وكان ثمة صوت كفحيح الافى ينبعث من بين اسنانه المصطكة . وانحنى  
القائل فوقه ، وحينئذ ابصر يوسف وجه اخيه الكبير .

وافاق يوسف من نومه . وتهدد بارتياح اذ ادرك ان ماحدث لم يكن  
الا حلما وترك السرير ووقف في وسط الغرفة ، وتمطي وتثاءب بينمسا  
كان يتناهى الى سمعه اصوات الاولاد الذين يلعبون في الشارع .

ووضع يوسف حول عنقه منشفة زرقاء ، ثم ذهب الى المطبخ ،  
وهناك غسل وجهه بماء بارد ، واعد فنجان قهوة كبيرا ، وحمله الى  
الغرفة ، ووضع على سطح الطاولة الخشبية ، وجلس على الكرسي ،  
وراح يدخن ويرتشف بين الفينة والفينة رشقات ضئيلة من القهوة ذات  
المذاق المر .

وركز يوسف نظراته على سطح الطاولة حيث كانت دمية صغيرة  
من قماش ابيض متسخ ، وكانت صديقة ليوسف ، وقد رافقته منذ  
صغره . وتطلع فيما حوله مكتئبا . ماذا سيفعل يوسف لو كان ابن  
ملك ؟ سيطوف العالم ثم يموت وحيدا على سرير بارد في فندق ما .  
سيموت ضائع الاسم والوجه ، وسيدفن في قبر ليس له شاهدة من  
رخام نقش عليها اسمه وتاريخ ولادته وموته . وأمسك يوسف بالدمية  
وتأمل وجهها الذي رسمت ملامحه بخطوط من قلم رصاصي . وطفى  
عليه سخط وحشي لعلمه انه لن يكون في الايام القادمة سوى شيء مهمل  
... عامل ذي اجرة قليلة . واخرج من درج طاولته مديدة ، وفصل بعدها  
المهرف رأس الدمية عن جسدها ، ورمى الرأس والجسد الى عتبة الغرفة  
حيث اعقاب السجائر مبعثرة . رحلت طفولته ، ونات عنه دون امسل  
بعودة ثانية . لن يكون له اطفال . لن يسمع الاصوات الرفيعة النزوة  
تناديه : بابا . لن يكون له بيت ولن يملك قطعة بيضاء . فطمه زوجة  
اخيه تحب القطن البيضاء . لم تتكلم لحظة اغلق باب غرفتها خلفه ،  
وكانت مضطجعة على السرير ، مفتوحة العينين . ولم تبد اية دهشة  
لنسلله الى غرفتها وكانها كانت تنتظر مقدمه في الليالي كلها . واستسلمت  
له دون حركة لكن انفاسها المتهدجة كانت تعبر عن نشوة جارفة .

ورمق يوسف تمثال البدوي الخشبي الصغير الذي كان قابعا على  
سطح الطاولة قرب كتاب . وكان يوسف وانقا من ان البدوي سيتكلم  
في يوم من الايام اذ يرفع الجواد قائمته الاماميتين الى اعلى في جموح  
مباغت ويطلق صهيله الذي ينادي الصحاري النائية .

وتذكر يوسف شعر فطمه يوم جلست تمسطة تحت ضياء الشمس ،  
ونمنى لو تلمسه الان اصابعه . وانساب اليه طرق خفيف على نافذة

## البديوي

— تنمة المشهور على الصفحة ٢٤ —

لديه مايفعله . وتناول جريدة اشتراها قبل ايام . وتبدأ يقرأها بعناية واهتمام كبيرين . واسترعى انتباهه خبر عن امرأة ماتت في ظروف غامضة فتخيل ماحدث : امرأة شابة متزوجة من رجل جدي يتصف بانتمسك والوداعة . وهما يسكنان في غرفتين على سطح بناية . وصاحب البناية رجل كهل زوجته صفراء هزيلة . يقصر صاحب البناية الباب . تفتح الباب الزوجة الشابة .

— الاجرة .  
— سيدفع زوجي لك في اخر الشهر .  
— سمعت هذا الكلام في الشهر اناضي .  
— كنا ننوي ان ندفع لك لكن طفلنا مرض فجأة .  
— ادفموا الاجرة او اخرجوا من بنايتي .  
تتوسل المرأة . تقول بصوت مرتجف : انتظر حتى اخر الشهر .  
يتاملها الكهل . تبدو له شهية فنية بضعة . فيمد يده الى وجنتيها

قائلا :

— ساكون لطيفا مع الناس اللطفاء .  
فتراجع الى الورااء مدعورة . وتحاول الخلاص من ذراعيه ، ولا بد انها قد تخيلت انذاك الاف العيون التي سترمقها بازدياء اذا امتلك جسدها رجل ثان . فقاومت بضراوة . وخذشت اظفارها وجهه . يوسف هو الكهل . وللمرأة وجه فطمة . سيمزق ثوبها . هزعت نحو سور البناية المصنوع من الاسمنت ، وارتمت الى اسفل حيث ارتطم لجمهسا باسفلت الشارع وانسحق وتناثر الدم في بقعة كبيرة . لن يستطيع رؤية الوجه الميت الدمى .

وقذف يوسف الجريدة بعيدا ، واستولى عليه عطش شديد فذهب الى المطبخ وتجرع كوب ماء فاحس وكأنه ولد نوا بينما كان الماء يتسرب الى حلقومه . وعاد الى الفرفة ولم يكن لديه ما يفعله . لن يذهب الى المقهى . لن يذهب الى السينما . الشوارع مملة لها نهاية معينة .  
واحس يوسف انه متعب واهن القوى فعاد الى الاستلقاء على السرير بينما هو يقول لنفسه : ماذا سأخسر لو تحولت الى كلب ؟

وكان تمثال البديوي ما زال على سطح الطاولة ، وكانت الصنمة قد بدأت بالزحف الى الفرفة ، فازدادت بهجة البديوي الذي يمقت الشمس . سيصهل جواده عما قريب ويعود نحو صحاري دون ظل ، وكان البديوي ذا وجه غامض مغلف بشر هرم . وتضاعف حين يوسف الى الموسيقى . وصعدت موسيقى البديوي وكأنها نداء للسفر الى سبع جزر ضائعة وراء سبعة بحار . ولم يقل البديوي كلمة لانه من خشب ولان يوسف لم يغادر المدينة التي ولد فيها . ولا يعرف كلمات غريبة .  
اقررت الارض وليس فيها غير جياذ هزيلة . انهض يا حزن يا فتي من ذهب اسود . فلتخفق رايتك . وصعدت الموسيقى اعلى فاعلى ، وتغلقت عبر العتمة والهواء ارتعشت حقول خضراء وامتدت . تتعرج فيها انهار . وتحول البشر الى اطفال يتصنون لاصوات البحر ، وتداعب الريح خصلات شعرهم بينما ترقب اعينهم اشعة القوارب تنأى .

وتفانم حين البديوي الى المدن القريبة حيث الصخب يلقي بانسودة ظافرة . وكان يوسف يعلم انه لن يرحل الى اي مكان ، وسيضيع نهاره في معمل خارج المدينة . وسيتلطخ يوسف بالسواد والزيت والعرق . وسيلمس الحديد البارد . ويخضع للفضب الكامن في اصوات الآلات ، وستكون عينا صاحب المعمل سوطين قديمين مبللين بالدم . حلم يوسف مرات عديدة انه اتقى صاحب المعمل وهو حي في بوتقة ضخمة مليئة بالحديد المصهور . وحلم انه يذبح فطمه . وانثنى بتخيله سماع صرخات حيوان يقابل وجه الموت . ساموت في فراشي بشرابين معصم مقطوع . سينثال الدم الى اسفل ويبوح باغنية قمرزية . لن ابصر غرابا يحفر قبرا لغراب اخر صريع . ساحمل جثة اخي حتى موتي . لن يكون لجثتي قبر .

وسمع يوسف ضجة في حديقة البناية . فهب واقفا ، وارهس

المطبخ فهرع اليها مستظلا فاذا بسميحة باسمه العينين . سألها :  
— هل انت زعلانة .

فيانت الدهشة على وجهها وقالت : لماذا أزعل ؟ كدت أموت من الخوف ، ظننت القادم ابي .  
وكانت شمس النهار توشك ان تأفل ، وقد وقفت سميحة يفمرها لمدة لحظات اصفرار الشمس القارية ثم انخثت وقالت :  
— ليست الشمس جميلة ؟

ويدت سميحة لعينيه وكانها مرتبطة بشكل ما بالشمس والياسمين الابيض ، وكانت شديدة الفتنة وكان رائحة الياسمين قد تكثفت وتجدت في لحم من ياسمين حار .

سألها :

— اين امك ؟

— نائمة .

— ليتها تظل نائمة !

— انت لا تحبها .

— وانت ؟

— انا احبها فهي ابي .

— هل كنت تحبينها لو لم تكن امك ؟

ففكرت برهة ثم تنهدت وقالت بمرح :

— اتمنى لو اكون شابا !

وابتمت بحور ، وتابعت الكلام قائلة باندفاع :

— اريد ان اكون شابا طويل القامة . اسمي يوسف . تتهدل خصلة شعر اسود على جبتي . اشتغل في معمل وارتي بذلة رمادية وربطة عنق حمراء وقميصا ابيض . واضع سيجارة بين شفتي . اصفر فسي الطريق . واذهب حيثما اشاء . وعود الى البيت في نصف الليل .  
فضحك يوسف وقال :

— هل ستنجين بنتا لطيفة اسمها : سميحة ؟

فلم تابه لمقاطته ، وتابعت قائلة بحرارة :

— اريد ان اكون هواء .

وضحكت كطفلة صغيرة ، واردفت :

— سأذهب .. اخاف ان تكون ابي قد افادت من نوبها .

وعاد يوسف الى غرفته ، ومضى يتجول فيها ضجرا متدمرا من شيء ما . وتوهجت في مخيلته شمس حمراء ابتلعها بحر عميق . ورجع ثانية الى المقبرة ، محني الظهر . وركع على ركبتيه ، ونبش التراب تواقا الى التسلسل نحو اسفل حيث الفتاة الميتة نائمة وليس لها ساعة صباح .

وزعق بوق سيارة في الشارع ، وتبعه صرير فرامل ، تلتها ضجة صماء فتخيل طفلا اشقر الشعر مسحوق الرأس تحت عجلات السيارة ، واستطاع معرفة وجه اخيه رغم تهمسه .

وجلس خلف الطاولة ، وانكا عليها بهرفقيه مسلما وجهه لراحته ومضى يتطلع الى تمثال البديوي . وصعدت موسيقى من اعماقه ، وامتزجت بشماع الشمس الافة ، وتغلقت في الهواء آهة مديدة صادرة عن فتاة صغيرة ، تجمعت عذوبة العصافير في حنجرتها . واستيقظ بديوي في اعماق يوسف . بديوي جلف مشعث الشعر . يملك خنجرا مقوس النصل ، ويملك خيمة في صحراء مجدية ، ولا يملك امرأة . وها هو الان ينحدر الى المدن تفوده رغبة هوجاء في بيع عينيه من اجل ضحكة امرأة . فطمه امرأة جميلة ، ضحكتها حديقة خضراء .

وغمرت الحرارة يوسف ، ونهض واقفا ولكنه عاود الجلوس اذ لم يكن

- انت جميلة جدا  
ورأيت السكنة هنيهات ، وكان الفرح في تلك اللحظة خيمة من  
نجوم يرتعش تحتها مخلوقان تفصلهما نافذة لها قضبان ونسيج حديدي .  
ووجد يوسف نفسه منساقا لان يسأل سميحة

- اتجنبي ؟

- احبك

- ستهربين معي

- سأهرب

فשמع حالا انها ملكة ، وقال :

- الذهبى نحو الباب

- لا اقدر

- لن ينتبه احد .

- لا .

- أرجوك

- لا . لا .

وتنهدت ثم اردفت : متعبة جدا . اشتغلت طوال النهار . سأذهب  
لانام .

وتشابت بصوت مسموع فقال يوسف :

- لا تغمي .

فتمنت له ليلة سعيدة ، وانفلتت كهرة متوحشة ، وابتمت عن  
النافذة عائدة الى داخل بيتها . ورجع يوسف الى الغرفة وقد استولى  
عليه الفيظ والخيبة القاسية . وغادر القبو متمجلا ، وكانت الشوارع  
ما تزال تمج بالحركة ، فثمة سيارات تهدر في وسط الطريق ، وناس  
على الأرصفة .

وقصد يوسف المقهى الذي لا يؤمه سوى عمال من مهن عديدة .  
ودلف الى داخله ، فرحب به صاحب المقهى ابو قاسم بصوت عال . وكان

في المكتبات

## انا وسارتر والحياة

بقلم سيمون دوبوفوار

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

في هذا الكتاب الرائع تروي لنا الكاتبة الوجودية  
الكبيرة قصتها مع الرجل الذي كان شريك حياتها ، من  
غير ان يكون زوجها ، جان بول سارتر . وهي من خلال  
ذلك تقص تلك المغامرة التي ادت الى انتصارها : كيف  
اصبحت كاتبة الى جانبه . وكيف كانا وما يزالان  
بواجهان الحياة .

قصة رائعة ، عميقة ، نابضة بالحياة

مشورات دار الاداب - بيروت

الثن اربع ليرات لبنانية أو ما يعادلها

سمعه فترامى اليه صخب رجال عديدين ، واستطاع ان يميز بسهولة  
صوت والد سميحة يرحب بضيوفه . ودخل الضيوف البيت ، وسمع  
يوسف وقع اقدامهم فوقه . وكانت الظلمة تحيط به كثيفة موحشة ،  
فاغلق النوافذ الثلاث ثم اضاء المصباح الكهربائي ، فبدأ تمثال البدوي  
على سطح الطاولة خشبة ضئيلة الحجم . أين سميحة ؟ صوت الأثني  
ناه . وليس للخيبة اغنية . احب الماء واغنية الماء . وبدأ القبو ليوسف  
كهفا فيحيا . فصعد الدرج بعد ان اطفأ المصباح الكهربائي ، وفتح  
الباب وغادر القبو الى الحديقة ، واستنشق بنهم الهواء الرطب . ولوحت  
له سميحة بيدها وهي واقفة في الحديقة الخلفية التي يفصلها عن  
الحديقة الامامية باب خشبي ، وأشارت اليه طالبة منه ان لا يذهب  
فاشار اليها انه يمضي قليلا ثم يعود . وكانت نوافذ غرفة الضيوف في  
الطابق الاول مفتوحة ينساب منها النور واصوات رجال .

وخرج من الحديقة الى الشارع ، وسار تحت المصابيح الكهربائية  
وهو يشعر بانه ليس الا تمثال البدوي وقد اكتسى باللحم .

ودس يديه في جيبي بنطاله ، واشعل سيجارة ، وقال لنفسه بفتة :  
يجب ان اعيش كغري من الناس . وتساءل : هل اعيش بشكل مختلف ؟  
لقد قرأ الكثير من الكتب . سيحرق الكتب . الموتى لا يقسمون  
كتبا انما هم يعبرون العالم ليلا ، ويظفون ابواب بيوتهم القديمة  
بقبضات ليس لها لحم ، وينادون الاهل وينادون الامعاء دونما جواب .  
ليس للكتب افواه وصرخات .

ومر بجانب يوسف شاب وفتاة . تضحك الفتاة . وتمتزج ضحكها  
باغنية مناسبة من احد البيوت يغنيها صوت خشن ، مرتجف كمياء البحر  
ساعة افول الشمس . واحس يوسف ان الضحكة والفتاة يختلطان معا  
في دمه . وخضع لشوق ملح الى القمر الذي لم يزرغ بعد . وضجر  
بعد حين من المسير ، وعاوده الحنين الى سميحة . فرجع ادراجسه  
نحو القبو . أين سميحة ؟ سميحة جميلة . ساقطف الياسمين المخنبيء  
في لحمها . ولن تظل النجوم في الاعالي . سبع ملاءات سوداء هاجمة  
في دم امي .

ودلف الى داخل القبو . وضاء المصباح الكهربائي ، ولم تمض  
سوى لحظات حتى تعالي فرع على نافذة المطبخ ، فاطفا مصباح الغرفة،  
وذهب الى المطبخ ، وهناك كانت سميحة جاثية قرب النافذة ، تسرامى  
حولها انوار متسللة من الشارع .

- أين امك ؟

- ترضع اخي الصغير .

- وابوك عنده ضيوف ؟

وصمت يوسف برهة ، استسلم خلالها لنزوة جامحة فعاود الكلام

قائلا :

- سميحة اريد . .

فقالت متسائلة بلهفة : ماذا تريد ؟

- اريد رؤية صدرك

- انت تراه

- اريد رؤيته عاريا

فانسابت ضحكها خافتة مفعمة بالعذوبة والارتباك ، وامتلكت

يوسف غبطة عارمة ، دفعته لان يتوسل بحرارة .

- لا .

- لماذا ؟

وظلت سميحة صامتة ، وابتدأ فرح يوسف ينحسر ولكنه عباد

جامحا اذا ابصر سميحة تتطلع فيما حولها وهي جاثية على ركبتها ثم

فكت اصابعها ازرار قميصها ، وكشفت القميص بحركة سريعة عن نهدين

شديدي البياض ، وكانا كتفاحتين فجئتين وشهيتين . وخيل اليه انهما

تالقا عبر العتمة . ثم غطتهما بالقميص فقال يوسف : مرة ثانية .

- لا تكن طامعا

المقهى راكدا كنهس سجين في قبضة سيف قانظ . واقترب ابو قاسم  
بعد حين من يوسف الذي يادره متسائلا :

- الم يات احد ؟

- لم يات احد

- هات فتجان شاي

ولم تبقي سوى هنيها حتى كان كوب الشاي موضوعا امامه على  
سطح الطاولة الخشبية العتيقة ، واجال يوسف نظرته فيما حوله فالفى  
وجوه الرجال متمبة شاحبة واشتاق لان يشاهد وجهه في مرآة رغم انه  
يعرف ان وجهه متمب وشاحب ويانس . يرتشف يوسف الشاي . يدخن .  
المقهى من خشب وتراب . انا من لحم وعظم . سينشق الدم احمر لو  
جرحتني مديبة . الناس من لحم . الالات من حديد . الحديد يسارد  
وناهم . العمل من حديد ولحم وحجر . اين اصدقائي ؟ اين هم ؟ هل  
تبههم يا يوسف ؟ وحشة يوسف ذراعان هزيتان تناديان مخلوقا ما .  
اصدقاء يوسف عمال مثله . ياكلون بنهم وسرعة . ويتضاربون بقبضات  
صلدة . ويرمقون النساء الجميلات بشهوة وابتهاال وكابة . وتبرق اعينهم  
بعتق لحظة يموت حلم ما . العلم راية بيضاء منحت فلانا ندايا لايسام  
ظفولتي . الرايات البيضاء معطمة في قعر المدينة . الفسب اغنية رجال  
مهزومين . اجهل العدو الذي هزمني .

يوسف يدخن . وكوب الشاي امامه فارغ . اقبل ثلاثة من اصدقائه  
العمال . وتحلقوا حوله .

- اين كنتم ؟

- في السينما .

وابتدات الكلمات تتناثر من الافواه الاربعة وتختلط . وتكلم يوسف  
حيثما وصمت حيثما اخر ، وانصت ببلاهة :

- نمت عشر ساعات

- ثم حتى ياتي عزرائيل

- ساصبر غنيا .

- كيف ؟

- ساتزوج مائة امرأة ؟

- كيف ؟

- سياسافر

- الى اينس ؟

- امي جميلة

- خلها الى القبرة

- ساتزوج امك

- امي تحب الشيباب الشقر

- ساصيب شعري

- اتفضل السمراء ام الشقراء ؟

- السمراء للششاء

- والشقراء ؟

- الشقراء للصيف .

وهيمن الصمت قليلا ، ثم قال يوسف :

- ماذا نفعل هنا ؟ هل نظل جالسين حتى اخر الليل ؟

- لنذهب ونسكر

واجتاحت يوسف رغبة عارمة في ان يكون في خمارة يحتسي كاسا  
من العرق اللاذع ، فوافق بحماسة ، ولكنه ما ان غادر المقهى برفقة  
اصدقائه حتى تلاشت رغبته ، وحل محلها توق الى الفوار ، فتوقف  
عن السير على حين غرة ، وقال لاصدقائه :

- لن اذهب معكم .

- لماذا ؟

- لا اريد ان اسكر

- ماذا تريد اذن ؟

- لا اريد ان اسكر

- هل تريد امرأة ؟

- ساذهب لانام  
- سجد امرأة وناخلها الى قبولك  
- لا استطع . نوافذ الجيران مفتوحة دائما  
- انا ساخذكم الى بيتي  
- وزوجتك ؟  
- سستنام الليلة عند اهلها  
- اين سجد المرأة ؟  
- انا اعرف شخصا سجد عنده ما نبغي .  
- هيا .. لنمش .. ماذا ننتظر ؟  
وسار الشبان الاربعة ، وابتهج يوسف فقد كان يريد ان يفعل  
شيئا حقيقيا .

- ها هو الشخص المطلوب

واشار احد اصدقاء يوسف الى شاب بدين قعير القامة يتسكع  
على رصيف قبالة دار السينما .

- انتظروني قليلا

وانتقل الى الرصيف الاخر ، وطلق يتحدث مع الشاب البدين .  
وظل يوسف واقفا قرب صديقيه اللذين يتحدثان بمرح . وعادت الى  
يوسف رغبته في الفرار . وكانت رغبة ضارية جعلته يرتجف ويحس  
ان له في مكان ما قمة وها هو الان يصعد نحوها ليطل على العالم من اعلى  
وتحركت قدما يوسف ، وسلك طريقا فرعية بينما كان صديقه  
صيحان بدهشة :

- الى اين ؟

وهرول وهو يحس انه مذنب وخائف . وكان الليل باقدامه الزجاجية  
السوداء يتجول في الشوارع حيث الاعلانات الكهربائية تضيء ثم تطفئ  
.. فنادق .. نور سينما .. مكتبات .. مقاه .. مطاعم ، سيارات ،  
عربات ترام تنساب فوق قضبان حديدية ،

ومضى يوسف يسير مبتعدا عن صخب الشوارع والابنية المضادة ،  
وتغلغل شيئا فشيئا في عالم الازقة الضيقة . ازقة طويلة متفرجة ،  
تنصب على جانبيها بيوت من تراب متقاربة متألفة .

وتسرب الى اعماق يوسف حنان مبالغت ، واقترب من مسجد مثلذته  
صاعدة الى اعلى حيث السماء السوداء والقمر الابيض . ولو سمع  
في تلك اللحظة صيحة : الله اكبر .. لالتصق بالعائط مرتمدا وخاشعا ،  
غير ان الاصوات كانت نائية . واندفع الى الامام ، وكان لالاسي صوت  
جارح فالازقة تهزم امام طوفان من الاسمنت والحديد والحجر .. ووقند  
ولد ناس جدد لهم وجوه غريبة لا يتسم ، وغمر يوسف الاسف لاحتضار  
الازقة ، وتذكر دميته المقطوعة الراس وشعر بحنين اليها ، وحث خطواته ،  
تدفمة قوة ملحة لرؤية البيت القديم الذي ولد في غرفة من غرفه . وحين  
وصل اليه ، توقف هنيهات على مبعدة من باب الخشبي ، وتامله بنظرة  
كسيرة . وكان ثمة مصباح كهربائي يلقي عليه بحزمة من ضوءه . ودنا  
يوسف من الباب حتى كاد ان يلتصق به ، وتطلع فيما حوله ، وكان  
الزقاق خاويا تماما ، فالصق وجهه بخشب الباب وكان صدر حنون ،  
وسمع اصواتا تنبعث من الداخل ، وخيل اليه ان احدها كان صوت  
فطمه فارتجف بهلع ، وتمنى لو يجهش بالبكاء غير ان صوت وقع اقدام  
تناهي الى مسمعه في تلك اللحظة وحفزه الى الابتعاد عن الباب والمسير  
من جديد الى الامام . وقادته قدماء الى شوارع عريضة . وبلغ قبوه ،  
ودلف الى داخله ، وخلع ثيابه دون ان يضيء المصباح الكهربائي ، وتمدد  
على السرير . وكانت السكينة ترين فيما حوله .

وقال يوسف لنفسه : يجب ان انام لانهض باكرا واصل الى العمل  
في الوقت المحدد .

وارهف سمعه ، وكان الطابق الاول صامتا . ابن سميجه . لا يسد  
انها نائمة وتخليها مستلقية على سريرها . شعرها متناثر على وسادة  
بيضاء ، وثمر ذاعة آسرة مهيمنة على وجهها . وكانت الميتة في القبر  
مستلقية ايضا على ظهرها فوق التراب . صبية في مقتبل العمر . لن  
تحس بوحشة لانها ميتة . القمر فوق القبر . واغمض عينيه عائدا

الى المقبرة بشكل خاطف . وانزلق الى جوف القبر . ستلتففه العنمة ،  
فطمه ايضا مضطجعة على السرير لصق أخيه .

واستسلم يوسف لاغفاءة . الاسماك في البحار . اسماك تسرق  
لهيبة ، حمراء عبر الماء والضوء . يئن يوسف . ربيع الصحراء بعيدة .  
يوسف امير قبيلة ، يملك جوادا وسيفا وخيمة وكارية تغطي وجهها  
بنقاب كثيف اسود . يوسف يريد رؤية الوجه . انها ليست الميتة .  
ومد يده وحسر النقاب . ولم يكن وجهها سميحة انما وجه فطمه .  
ونمت حسرة مؤلمة في قلبه لعلمه الخفي ان هذا ليس الاحلما . اوه  
الاسماك في البحار . النجوم تبرز ليلا . والطفل يطلق صرخة فسزع  
لحظة يصر لاول مرة شمس الارض . الماء . يوسف يسمع صوت ماء .  
ماء يجعل مكانه . الماء تحت للارض . يوسف يحب الماء . يمقت الماء .  
يحب اخضرار الحقول واصفرار الرمال وتوهجها تحت حريق الشمس ،  
وبدا ليوسف ان الماء ليس الا فتى اصاع جواده في شوارع شبيهة  
بدهاليز ضيقة حيطانها عالية . صاحب العمل يضحك . الشمس تطلع  
من الافق الشرقي . القمر تفاع صفر ، صاحب العمل يأكل تفاحا .  
الشمس تأفل مساء وتتوارى . لقد اصاع بدوي ما خيمته . وما هو الان  
في مدينة جائمة تحت اقدام جبل . يوسف يتسلق الجبل . سيصعد  
الجبل حتى قمته . هل يهب هواء الجبل ثروة او جناحين او اسما  
جسديدا .

اقبل والد يوسف . انه ليس سلطانا تركيا ، انما هو رجل كهل ،  
معني الظهر ، خشن اليدين ، وجهه كثير التجاعيد . اين انت يا ولدي .  
تعال وساعدني . وانتحب يوسف ، امه شاحبة الوجه ، صامتة . تربط  
جبينها بمنديل ابيض . عيناها جنديان مهزومان عادا جريحين من  
المبحة . وتزايد نحيب يوسف وافاق من نومه مضطربا ومسح دموعه  
وحاول ان يتذكر لماذا كان يبكي اثناء نومه . فتذكر فقط انه شاهد  
امه . وعاود النوم . نهر تحت الشمس . نهر يحفر ماؤه اقية تحت  
الارض يسمع هدير الماء . البدوي يحب الماء . العشب الاخضر ينمو  
على قم يوسف وفي عينيه . فطمه مغمورة بالماء ، تضحك منتشية . يوسف  
طفل عاري القدمين يعدو عبر البساتين ويسرق الثمار الفجة . فطمه  
تصرخ مستغيثة ، فاما يوشك ان يبتلعها . يوسف يمد ذراعيه متخطا  
فلا تصلان الى فطمه . وشاهد يوسف بحرا ازرق وسماء زرقاء ، وكان  
الوج يتدفع الى الامام ثم يتراجع بايقاع كأنه موسيقى اللون .

وفتح يوسف عينيه متعبا مخدرا ، وادشسه ان يحس انه قد اتى  
بعد فوات الاوان الى العالم ، وعاد الى الاستسلام للسبات بينما هو  
يفكر ان الناس يسرون على قدمين في الشوارع . وتزايد استسلامه  
لنوم . وشاهد وجه فتاة ، ووجه طفل . اين رآه ؟ وجه فطمه . سميحه  
الميتة . ثمة سلم خشبي مظلم . احدهم يقرع باقدامه درجاته . يسمع  
يوسف الصوت بوضوح . الدرج مظلم ، يختفي في ليله وجه فطمه .  
ويشتد القرع . ويشتد القرع . فيفتح يوسف عينيه مذهولا . فاذا  
الطرق فوكة على سقف الغرفة . وتوقف الطرق على حين غرة . وخيل  
الى يوسف لمدة لحظات ان الطرق الذي سمعه مجرد وهم ولكن الطرق  
ما لبث ان عاد . وتساءل : هل هي سميحة ؟ وترك سريره ، وصعد  
درج القبو ، وفتح الباب باحتراس ، ولكن صريرا حادا مزق سكون  
الليل ، وخرج يوسف من الباب عاري القدمين . وفتح في تلك اللحظة  
باب غرفة الصيوف على مهل ، وبدت سميحة ، وابصرت يوسف ينمو  
منها شبعا اسود طويلا صامتا . وهمت بالتراجع غير انها تقدمت  
نحوه واسلمت رأسها لصدرة ، ولم تحاول ساعدها تطويق خصرها ،  
ولست شفتاه شعرها بينما جسدها متلاصقان . وكانا آنذ مخلوقين  
تلاقيا دون كلمات ، واستسلما لحنان مشوب بنشوة باهرة . وكان لاية  
حركة ضئيلة تصدر عن جسديهما موسيقى ثمة ، وكان شعرها تحت  
شفتيه ناعما مغمما برائحة النوم .

ورفعت وجهها اليه ، فاحنى رأسه قليلا ، وتلقى الغمان في قبلة  
طويلة . وطوق عندئذ جسدها واحتضنها فاستكانت ملتصقة به ، وهدرت  
في شربتها اغنية حارة . ولم تمنع لحظة قادها نحو باب القبو ،

وسارت مسحورة .

وانحدرا الى القبو ، وتمنت ان لا يضيء الصباح الكهربائي ، ولم  
يحاول الابتعاد عنها . وتمددا على السرير متلاصقين وجها لوجه ، وانفجرت  
شفتاها قليلا لتتيح لفمه التمسك بشفتها السفلى ثم دفعت بلسانها الى  
فمه . وفوجيء يوسف وتلاشى بفتة وحل محله بدوي مشمت الشعر ،  
جلف . ارتعد خائفا اذ ادرك ان حديقة الياسمين سراب . واستيقظ  
غضب ممتزج بشبق صار . وغفمت سميحة بكلمات ما . وكان لسانها  
المتحرك في فمه يبعث في لحمه الحريق والخيبة والهلع ، واجتاحته  
القسوة . وضحكت سميحة ، وهمست بصوت مثقل بالنشوة والارتباك:  
انتظر انتظر .

وبدا لها يوسف مخلوقا غامضا جديدا شرسا كل الشراسة ، يده  
تشبثان بلحمها بفظافة مؤلمة فتأوهت ، وضحكت بارتباك ، فتزايدت  
قسوة اليدين واللم . ففوجئت سميحة ، واصطنعت مقاومة ضئيلة  
فاصطدمت بقسوة جامحة واستولى عليها الخوف ، وتمتمت : اتركني  
اتركني .

فلم يفه بكلمة ، فقاومت وقالت بصوت مرتفع قليلا : اتركني اتركني  
فاطبقت يدها على فمها وعنقها ، وكانها تبغيان خنقها ، فاحسنت انها  
مشلولة ، واستسلمت له دونما حركة ، ووجدت نفسها تهمس بين الفينة  
بصوت خفيض : ماما .. ماما .

وافلتت من فمها صرخة الم رغم محاولتها كبتها ، وانتظرت واجمة  
منتشبة ريشا انزاح ثقله عنها . تمدد بجوارها وودت لو يقول كلمة ما ،  
غير انه ظل صامتا ، وهمست بعد قليل :

— ساذهب .

وانسلت من السرير . ووقفت لحظة كأنها تريد شيئا ما ثم سمعها  
تصعد درج القبو ، وتطلق الباب خلفها يحذر ثم ساد السكون .  
ورجع البدوي الى حصانه الخشبي فامتطى صهوته ، وظل يوسف  
مستلقيا على سريره فارغ الرأس . واحس بعد حين ان السقف واظيء  
وسبخنقه ، فنهض وارتمى ثيابه ، وغادر القبو . وسار في الطرقات  
المقفرة الخاضعة لصمت ما بعد منتصف الليل ، ولم يكن يوسف يفكر  
بشيء .

ووقف امام فندق ، كان اسمه ذا حروف كهربائية ملونة تنطفئ  
وتضيء برتابة ، فصعد الدرج الى الطابق الثالث حيث الفندق ،  
وهناك استقبله رجل بدين ذو عيين جاحظتين يمتلكهما التعب والنماس .  
واطلع الرجل على هوية يوسف ثم سجل اسمه في دفتر كبير مفتوح .  
ونسلم منه اجرة نومه سلفا ، وقاده الى غرفة وسخة الجدران ، تحوي  
سريرا حديديا وخرانة خشبية لها مرآة كبيرة طويلة ، ولم يحسول  
يوسف الوقوف امامها . واطفا النور ، وخلع ثيابه بعجلة ثم اضطجع  
على السرير مغطيا جسده بالحاف .

ونام على الفور ، ولكنه افاق فيما بعد وقد خيل اليه انه سمع  
نحيب امرأة . وكان حلقة جافا فشرّب كوب ماء ثم عاود النوم مسن  
جديد .

طبعت على مطابع



تلفون : ٢٢٢٩٢١

## سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من اشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتّاب المسرح

صدر منها :

### ١ - البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر  
ترجمة الدكتور سهيل ادريس والحامي جلال مترجمي  
الثنى ٢٠٠ ق.ل

### ٢ - ماريانا

تأليف فديريكو غارسيا لوركا  
ترجمة شاكرا مصطفى

الثنى ٢٠٠ ق.ل

### ٣ - هيروشيمما حبيبي

تأليف مرغريت دورا  
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

الثنى ٢٠٠ ق.ل

### ٤ - لكل حقيقته

تأليف لويجي بيراندلو  
ترجمة جورج صرايشي

الثنى ٢٠٠ ق.ل

### ٥ - تمت اللعبة

تأليف جان بول سارتر  
ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثنى ٢٠٠ ق.ل

## منشورات دار الاداب - بيروت

وحين استيقظ في الصباح ، انبأته الشمس المتسللة الى الغرفة  
ان قد تأخر عن عمله فقفز من السرير مذعورا ، وشرع يرتدي ملابسه .  
وتنبه فجأة ان لا فائدة من خروجه ، فخلع ثيابه ، واستلقى على السرير  
وغرق ثانية في النوم . اقبلت زوجة اخيه فطمه . يداها صغيرتان  
حائيتان . يدا يوسف كبيرتان متممتان مات حلمهما بان تزرا بنفسجا في  
حديقة بيت صغير . عينا فطمه ورد اسود . جسدها ابيض لم يصره  
مرة عاريا تحت ضياء الشمس . الملائكة والشيطان في قبر . الديدان  
تأكل فتاة ميتة لا تقاوم . الملائكة طيور بيضاء والشيطان زهرة سوداء .  
فطمه تقول :

- لو نسافر ؟؟

- الى اين ؟

- الى اخر الدنيا

- الى اخر الدنيا

- ساعطيك سبعة جياذ

- سبعة جياذ فقط ؟ الارض كبيرة

الارض لها سقف واطير واربعة جدران صلدة ، والجياذ سخيطة  
في غرف مغلقة ارضها مظافة بالنين ، منكسة الرؤوس مكتوبة لا تصهل  
فبرايها الضمحلث وحلت محلها ابنية من اسمنت وحجر وحديد وقد مات  
الرجال الذين كانوا يمتظون صهواتها ويلوحون بشراسة بسيوف ذات  
نصال محدودة . لا تحبي اللآلئ . الصيف عربة من شمع تحترق بعيدا  
عن الماء . الموسيقى عصفور مفقود . البحر حديقة زرقاء بلا اشجار  
والقارب سمكة من خشب . اوراق الاشجار نجوم خضراء . لا تحبي  
اللالئ . سميحة نظا الحرير واللالئ . البدوي يشغل محني الراس  
في معمل . فطمه لا تضحك . اقرر القبر . لست صديق القمر والليل  
احبك . فطمه لا تضحك . عيناها يدا متسول . يداها تلمسان جهة  
يوسف فيتساقط مطر من يا سمين في دمه ، وينتشله غرباء من بشر  
عميقة . وارسل قميصي الى اب اعمى .

ويستيقظ يوسف في تلك اللحظة من نومه ميتها . ويقفز من  
سريه . ويفسل وجهه ، ويقف امام المرأة ، ويمشط شعره بعناية . ثم  
يرتدي ثيابه ، ويقادر الفندق .

وكان بانتظاره الاسفلت الرمادي والشمس وابواق السيارات ،  
والرجال والنساء المتحركة اقدامهم بايقاع حائر بين السر البطيء والسير  
السرعة ، وواجهات المحال الزجاجية وصفارة الشرطي الزاعقة بين الفينة  
والفينة وصيحات بائني الصحف واليانصيب وجليه عربات الترام .

ودلف يوسف الى داخل احد المطاعم ، واكل بشراسة ، ثم عاد الى  
الشوارع يمشي دون هدف . واحس انه وحيد رغم الضوضاء والناس .  
ويستطيع بسهولة امتلاك العالم دون ان يبذل شيئا من حركاته ، وكان  
حذاؤه يضرب الرصيف برتابة ، وعيناها تحملقان ببلاهة وفصول في كل  
شيء يحتويه الشارع وتخضعانه لسيطرتهم التي لا يقدر احد على  
الفرار منها : يوسف يصفع وجوها . يلثم شفاها . وكاد ان يرتطم  
بخادم خارجة من حانوت جزار ، تحمل ديكا مذبوحا فتراجع خائفا ، وظل  
واقفا يرقب الخادم بوجل حتى غابت عن بصره . ثم قادته قدماءه  
بشكل قسري الى الاذقة . واحس وهو يمشي بين البيوت الطينية انه  
يستنشق بعد مرض طويل هواء حقيقيا ممتزجا بضياء الشمس .  
وبدا له الامس مجرد حلم اسود بدده الصباح .

وبلغ يوسف بيت اهله القديم حيث ولد ، ووقف امام الباب  
الخشبي المهترى ، وضغط زر الجرس باصبع ترتجف ، فتعالى فورا  
صوت ممطوط متسائل : من ؟

فتردد يوسف لحظة ولكنه ما لبث ان اجاب بثقة :

- انا .. افتحوا ..

وكانت الشمس تصعد اعلى فاعلى تاركة الافق الشرقي لتمتلك

المدينة .

زكريا نامر